## الفصل الثامن

# التيريك

### قبل الوثبة

هناك طريقتان للتحضير الذاتي لاكتشاف الأماكن الجديدة الأولى: هي قراءة كل أو تقريباً جميع المراجع التي تتعلق بالمنطقة الخاضعة للدراسة، والحضور بكامل العدة إلى المكان لإكمال وتدقيق الثروات التي وفرها وجمعها الأسلاف ولكن هناك طريقة أخرى أوحى إليّ بها في عام ١٩٤٨م الرحالة الشهير المكتشف الأول للآثار الألطائية القديمة س. إيّ. رودينكو.

ولما بدأت بالاستعداد للسفر إلى ألطاي نصحني بعدم قراءة أيّ مؤلفات خاصة عن الآثار الألطائية بالرغم من وجود الكثير منها والاقتصار فقط على المؤلفات العامة المتعلقة بتاريخ المرحلة التي تهمني، وهذا هو الشكل الأسهل للإبقاء على حداثة الاستيعاب وإيجاد ما قد فات الرحالة من حقائق لأن التصفح شيء والمعاينة شيء آخر.

ومرة أخرى كما من أربع سنوات خلت نويت البحث عن المدن الخزرية في منطقة جديدة غير معروفة لي. ولكن الفرق واضح فالآن صار من الممكن التوجه ليس فقط بالغريزة لأن الخبرة الغنية من الأعمال في منطقة الفولغا شكلت منظومة واسعة ومترابطة من الكتب عن الأتراك والخاقانيات التيوركية والأويغورية «الأتراك القدماء» والتي كتبتها خلال ذلك الوقت سمحت لي بتوسيع مدى الأفق التاريخي وتذكر الكثير من تلك التفاصيل التي تغيب عن القارئ ولكنها تنطبع في ذاكرة الكاتب. وأخيراً خصص المعهد الذي استدعاني (Ginee) بطريقة ما مبلغاً من المال للنقل وإمكانية استئجار سيارة شاحنة لمدة أسبوع.

واخترت قاعدة للأعمال المقبلة مدينة كيزيليار (قيزيليار) الواقعة في مركز السهل الذي بحسب رأي م. إ. ارتامونوف قامت عليه عاصمة خازاريا الأولي - سيمندير.

وانضم إلينا ف. ن. كورين الذي عمل في عام ١٩٦١م في تل ستيبان - رازين والمعجب بالتاريخ. فقد قام بمهارة بالمسح الطبوغرافي الذي بفضل مساعدته لنا نجحنا بالقيام بالتنقيب أكبر بكثير مما نوينا في البداية.

واستأجرنا سيارة من قاعدة سيارات (مرآب) قيزيليار مع السائق الذي نظر إلينا في البداية بعين الشك ولكن سرعان ما ظهر أنه صديقنا الأول. وهكذا تشكلت المفرزة الجديدة التي انفتحت أمامها سهوب التيريك الواسعة لدرجة بدا معها البحث عن إبرة في كومة من القش أسهل من البحث في هذا المتسع عن هيكل عظمي من العهد الخزري.

## التيريك

في أيّ متاهة يجب أن يكون هناك خيط أريادينا هكذا بدا لي التيريك الذي يمر بمجراه عبر قيزيليار بمياهه البنية التي تصدم بعنف ضفتيه والأوتاد (الركائز) الخشبية للجسر في الوقت الذي يخبط فيه الصبيان بفرح الأمواج دون أن يعيروا تياره أي اهتمام وبالنظر إليهم قررنا أن الأحاديث والحكايات عن التيار العاصف للتيريك كما يتردد مراراً مبالغ فيها ولكن النهر يبقى نهراً.

ومما بدا لي مهماً هو شيء آخر، فالتيريك يجري ليس في منخفض وإنما في مرتفع من الأرض مرسباً الرمال قرناً بعد قرن رافعاً سريره فوق السهل الذي يحيط به. وبالسدود القوية فقط أنقذوا بيوت قيزيليار من مياه التيريك. ولكن ألا يحتمل أن تخرق السدود وماذا سيحصل عندئذٍ؟

وهذا ما حدث في لحظة وصولنا. كانت البداية في الانهيارات - إلى الأسفل من قيزيليار حيث خرقت المياه السد واستُدعِيَت جميع القوى لإعادة بنائه ولكن السكان لم يظهروا أنهم مضطربون وشرحوا لنا أن هذا يحدث كل عام تقريباً والمصيبة المألوفة - ليست مصيبة.

وباشرنا بالمحور الأول إلى الشرق من قيزيليار نزولاً مع تيار التيريك والسهل الواسع المتوهج بأشعة شمس آب يتقاطع من وقت لآخر بجدران من القصب العالي وكانت تلك عبارة عن بقايا السرير القديم للتيريك الذي مثله مثل

أي نهر آخر يجري في اتجاه فسيح تغير فيه المنحدرات سريره. ولم تكن هنا أيّ آثار ولا أيّ أطلال فقد صارت أثراً بعد عين.

وفكرت بماذا يمكن أن يكون على الضفة اليمنى الجنوبية للتيريك، إننا نرى صورة أخرى وفي الحقيقة بوصولنا إلى المعابر الواقعة إلى الأسفل من قيزيليار رأينا بحراً، أجل بحراً بعمق ١.٥م.

وعندما تصدع السد أغرق التيريك القسم المنخفض من دلتا السهل وما الذي كان عندما لم يكن السد موجوداً؟ من كل بد كان أكثر رعباً! ثم استدرنا عائدين لأنه صار واضحاً أن الخزر لم يستطيعوا العيش في أرض تغمرها مياه التيريك.

وفي اليوم التالي حاولنا مرة أخرى العبور إلى الضفة اليمنى للتيريك وفي هذه المرة إلى الأعلى من قزيليار وعبرنا التيريك على الجسر وتعمقنا بالسهب المنبسط آملين الوصول إلى الأماكن المرتفعة المحملة على الخريطة لأننا تعودنا التنقيب في التلال وفكرنا أن أي مكان مرتفع هنا سيحمل آثار الاستيطان القديم.

واضطررنا للسفر بعيداً وصادفنا في الطريق نهيراً صغيراً عمقه حتى الركبة فعبرته سيارتنا دون أيّ صعوبة، وبعد عدة ساعات من الطريق شاهدنا عربة نقل محملة بالأمتعة ونساء جبليات جالسات على كومة الأشياء المنزلية، وهن مسافرات على مهل إلى الجنوب حيث تلوح في البعيد الخيالات الزرقاء لذيول سلاسل جبال القفقاس «ماذا حدث»؟ سألنا. فتبسمن بفرح وقلن خلال الليل شق التيريك السد في مكان ما إلى الأسفل من غروزني وهن جاليات من الفيضان /الطوفان/ ولم يكن على وجوههن أيّ مسحة من القلق فالمياه سالت في السهل ببطء أقل من سير الحصان وحتى لو أدركتهن المياه فهن سينجحن في العبور من الأماكن الضحلة والوصول إلى الجبال المنقذة. ولكنا صرنا غير مسرورين فحيث يسير الحصان دون صعوبة - تعلق السيارة واحتمال الجلوس أسبوعاً على سقف صندوق السيارة في وسط بحر بعمق قامة الإنسان قطعاً لا يروق لنا. وبعد التشاور استدرنا راجعين في الوقت المناسب، فالنهر الذي بعمق الركبة تمكن من التحول إلى نهر عريض وتوسع على مرأى البصر منا، وفاضت المياه الضحلة في كل المنخفضات غير الظاهرة بالعين المجردة، وضغط السائق عتلة الوقود (زاد السرعة - المترجم) وقام بانعطاف كبير مختصراً المسافة لكي يخرج بصعوبة إلى الطريق. ولما اجتزنا الجسر عائدين حذرنا حارس الجسر بأن المعابر ستغلق بين دقيقة وأخرى وهنأنا لأننا استطعنا أن ننجوا.

وعلى أيّ حال ساعدنا الحظ مرتين. وأخيراً صار مفهوماً لماذا سمى الجغرافيون القدماء فج (ثغر) داربال بـ «بوابات قزوين» لأنه لا يوجد معبر على طول شاطئ قزوين بالقرب من دربنت. ولذلك فضَّل القادة العرب للهجوم على خازاريا الطريق الصعب عبر المضائق الجبلية وليس سهل دلتا التيريك وسولاق الواقع بين دربنت وخازاريا ففي تلك الأوقات لما كانت

ضفاف التيريك والسولاق غير محصنة وهذان النهران القويان يجولان في السهل كان خطر الفيضان أكبر بما لا يقاس عما في وقتنا الحالي الجاف نسبياً. وكانت الفيضانات حاجزاً مائياً غير قابل للعبور حتى بالنسبة للفرسان. فمن الممكن عبور نهر بالمخاضة ولكن لا يمكن التحرك عشرات الكيلومترات في مياه عمقها حتى الخصر فالناس والخيول يتعبون وسوف ينهارون ويغرقون حتى في المياه الضحلة. والخزر أنفسهم استطاعوا اختيار الوقت الجاف للإغارات على دربنت، وبما أنهم سكان محليون عرفوا الطرق وأين كانت المياه غير مخيفة ولكن لم يكن في مقدور الغرباء اقتحام فيضانات الأنهار وإنما هجموا من ما وراء القفقاس عبر الجبال لكي ينهبوا مدينة سيمندير الغنية التي تعترض طريقهم إلى عمق البلاد.

فإن كان الأمر هكذا فالبحث عن سيمندير والقرى المحيطة بها يجب أن لا يكون إلى الأسفل من قيزيليار وإنما إلى الأعلى منها، وهكذا قررنا العودة إلى قرية غريبينسكوى الواقعة على تخوم الكثبان الرملية التي تسمى هنا «بورون» واستأنفنا البحث.

openkandl.com

# البورون

هي سلسلة التضاريس الرملية التي تمتد على طول الطريق المعبد الذي يصل قيزيليار بـ غروزني يفصلها السهب الجاف عن الطريق في أماكن وتقترب منه في بعض الأماكن الأخرى بجواره تقريباً. ولما وجدنا مكاناً مثل هذا أوقفنا السيارة وتقدمنا سيراً على الأقدام إلى التضاريس الرملية ووقفنا مندهشين ففي كل مكان وسط العشب اليابس الذي يحيط بسفوح التلال وعلى المنحدرات الرملية استقرت كسرات من الأوعية الطرية (أي من الفخار غير المشوي وإنما المصنوع تحت أشعة الشمس - المترجم) ولم يكن من الصعب التعرف عليها، فقسم منها من دون أي شك من العهد السرماتي وقسم آخر يشبه جداً لقانا الخزرية في دلتا الفولغا.

وبالاستفادة من الطريق الجيد درنا بسرعة حول كل التخوم الجنوبية للتضاريس حتى منعطف التيريك الذي تقوم إلى القرب منه مدينة غروزني، وخلال ذلك قمنا بجولات منتظمة كل ١٠-١٢كم ووجدنا ليس فقط الفخار وإنما مقابر قديمة في الرمال التي سفتها الريح مساعدنا الوفي لأن القسم الكبير من الأشياء الثقيلة الضائعة أو المتروكة على السطح غاصت مع مرور الزمن خلال الرمل الناعم. والريح فقط كشفتها مرة هنا ومرة أخرى هناك كما ساعدتنا التربة الغضارية - الرملية الجافة بالعثور على آثار الحضارت القديمة.

وأخذت الصورة تتوضح تدريجياً فالقرى منذ العهود السرماتية والخزرية قامت على وجه الاستثناء على الأطراف الجنوبية للرمال وإلى عمق يصادف فيه فقط الفخار الأحمر النوغائي الرقيق الذي تركه الرحل الذين ساقوا قطعانهم من ضفاف الكومي إلى المراعي الربيعية. ولكنه كان قليلاً جداً لأن هذه الصحراء المحروقة بالشمس خلال القسم الأكبر من السنة كانت مقفرة وظهر سؤال: لماذا كانت تخوم البورون في الألف الأولى الميلادية مأهولة بكثافة أكثر حتى مما هي الآن! وبأي شيء يمكن أن يكون ذلك مرتبطاً؟

تصور بنفسك الظروف المناخية لذلك الوقت عندما عاش هنا الخزر الحضريون. لأن ذلك كان عصر الترطب الزائد للسهوب، والتيريك لم يقذف فقط بالضفة اليمنى ولكنه أغرق تلك الأماكن التي تقوم عليها الآن القرى القوزاقية الكبيرة وعذّب القوزاق المهاجرين من أوكرانيا وإن كان الأمر كذلك فإنه يعني أن القرى الخزرية يجب أن تكون واقعة أعلى من مستوى الفيضانات المحتملة، ولهذا السبب نجد آثارهم هناك حيث الآن في العصر الجاف نسبياً لا توجد أيّ فكرة لبناء البيوت، وهكذا تؤكد الجغرافيا معطيات علماء الآثار وكلاهما معاً يسمحان للمؤرخ بوضع صورة للعصور السالفة - زمن الازدهار الخزري.

عاش الخزر في تلك الأماكن التي يعيش فيها الآن قوزاق الأعراف القبيلة الحضرية التي تتكلم الروسية ووفقاً للأساطير المحفوظة في الذاكرة الشعبية. إن أجداد قوزاق الأعراف سكنوا في تلك الأماكن منذ وقت طويل قبل إيفان الرهيب (١٥٣٣-١٥٨٨م) وساعدوا قادته على بناء قلعة التيريك على الحدود مع محاربي داغستان والشيشان الجبليين. وفي القرن ١٦م مدَّ القيزيلباش (ذوو الرؤوس الحمراء وهو اسم غير محبب عند بعض التيورك... المترجم) الأشداء واضعين أنفسهم تحت قيادة الفرس الذين بسطوا سيطرتهم على القفقاس ولكن التيريك وقف حاجزاً أمام طموحات الشاهات الصفويين وتتذكر منذ ٧٠٠ عام قبل هذا وعلى الخط أوقف الخزر زحف العرب بالرغم من تناسب القوى المتماثل. واتفاق الظروف لا يمكن أن يكون مصادفة وخازاريا التيريكية استطاعت أن تقوم فقط هناك حيث تقوم الآن ستانيتسات (قرى القوزاق الكبيرة - المترجم) قوزاق الأعراف.

ولكن هذا ليس إلا فرضية! هذه مجرد أفكار أوحت بها انطباعات عامة عن ترابط العصور وعن تعاون الطبيعة مع الناس وعن تناوب فترات الترطب والجفاف! كلاَّ لكي يكون المفهوم مبرهناً نحتاج إلى إثباتات حقيقية، فلو قال لي زملائي علماء الآثار أين مدينة سيمندير؟ وأين قلعة التيريك؟ طالما لم تعثر عليهما، عندئذٍ كل الأحاديث عن ما يجب أو يمكن أن يكون لا تساوي قشرة بصلة.

لقد توقعت هذه الاعتراضات وعلاوة على ذلك عرضت لي بصورة واضحة جداً كما لو أني سمعت ورأيت الذي يناقشني. ولذلك أدرنا السيارة متعاونين على تفتيش شريط السهب الواقع بين البورون والغابات الضفافية للتيريك وهذا الشريط امتد من غروزني إلى شاطئ بحر قزوين أكثر من ٢٠٠كم.

# السهب

إن ما لفت انتباهنا ونحن منطلقون في السهب كم بدا هذا السهب مستوياً أمام أعيننا. فما شاهدناه في الطريق الأول من أسرة الأنهار الجافة دل على أن الكتلة الأساسية من المياه قد سالت فيها وبالتالي يجب أن نصادف ولو روابي صغيرة لا تغطيها المياه في وقت الفيضانات آملين العثور فيها على الأطلال التي كانت في العصور الوسطى محاطة بمتاريس ترابية ترى حتى من مسافة كبيرة.

ولكي نبدأ تحركنا إلى الشرق إلى البحر الذي يجب التفكير بأنه ليس عبثاً سموه بحر الخزر في القرن العاشر الميلادي.

ولوقت طويل كنا أمام امتحان صعب وصبرنا ولكننا لم نلحظ تلاً واحداً على كل من جانبي الطريق. وفي النهاية لاح في الأمام شريط أزرق عند خط الأفق وظهرت الريح البحرية الدافئة المالحة وفي الوقت نفسه ومن الناحية اليسرى من الطريق تراءت ملامح معروفة لنا - إنها متراس.

وهذا لم يكن اكتشافاً فنحن وقعنا أكثر من مرة على وصف «الطلل الثلاثي الجدران» ثلاثة من المتاريس: جنوبي وغربي وشرقي مع توسيعات للأبراج شكلت مربعاً منحرفاً (معين) أساسه من جهة الشمال لم يكن موجوداً وكان من المستغرب جداً لماذا لم يُبنَ الجدار الأخير ولا سيما أنه لم يكن هناك أيّ خطوط طبيعية مثل سرير التيريك الجاف حتى في ذلك الزمن القديم ذاته. والفخار المتناثر بكثرة بالقرب من المتراس الغربي كان مشابهاً لفخار القبيلة الذهبية عند الفولغا.

ولكن الأهم والأثمن بالنسبة لتاريخ القلعة هو أن قمم المتاريس كانت مغطاة بطبقة من سرطانات المياه المالحة الصغيرة وهي كثيرة جداً وغير مكسرة وراقدة في موضعها الأصلي مما أسقط رواية ظهورها بالمصادفة على المتاريس، فمن المعروف أن الرخويات هي أفضل ما تحس بنفسها في الأماكن الضحلة حيث تسخن المياه بالشمس، ومن الواضح أنها تكاثرت هنا في الوقت الذي غطت فيه أمواج بحر قزوين قمم المتاريس قليلاً وكان المنسوب المطلق لقمة المتراس نحو ناقص ١٩م ومثل هذا المستوى وصل إليه بحر قزوين فقط في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وهذا يعني أن «الطلل الثلاثي

الجدران» كان مبنياً في الربع الثاني من القرن ٨م بين فترة تشكيل القبيلة الذهبية والارتفاع الأقصى لبحر قزوين.

وفي هذا الوقت تصدعت إمبراطورية ورثة جنكيزخان المغولية ودخل الأولوسيون[1] المنفصلون فيما بينهم في حرب ضروس في منغوليا، فتقاتل أريق بوغا صنيعة المغول الغربيين في الأعوام ١٢٦٠-١٢٦٤م مع أخيه قوبلاي المعتمد على جيش من المحاربين القدماء الذين انتصروا على الصين، وبعد الهزيمة ومصرع أريق بوغا تابع أمره قايدو الذي دعم الأمير نايان الذي قام على قوبلاي ومن تعداد الخانات الذين رفضوا طاعة قوبلاي التي تجلت بعدم دفع الحصة من الأتاوات التي تجمع ظهر بركي - خان القبيلة الذهبية الذي أجبر على الاصطدام حالاً مع أخ قوبلاي إيلخان إيران - هولاكو وسالت الدماء أنهاراً في وديان أذربيجان وداغستان.

وما دام بحر قزوين لم يخرج عن شواطئه (كان لـ بركي) خان وورثته كل الأسباب للخوف من الضربة المفاجئة من الجنوب، ولذلك سعوا لإنشاء قلعة في أسافل التيريك لمفرزة حراستهم. ولكنهم لم ينجحوا ببناء المتراس الرابع لأن البحر أغرق السهوب من حول القلعة. وصار هو نفسه حاجزاً بالنسبة لفرسان العدو أكثر قوة بكثير من أي قلعة. ولذلك بقيت التحصينات غير كاملة البناء، وبالمتاريس التي استقرت عليها سرطانات المياه المالحة فقط استطعنا إثبات أنه ليس لها أي علاقة بالخزر.

وفي مساء ذلك اليوم نفسه وجدنا طللاً آخر وفي هذه المرة على الشاطئ القديم عند منعطف التيريك ولكن حتى من النظرة الأولى صار واضحاً ما هو.

إنه متراس كان في المخطط على شكل نجمة ثمانية الرؤوس بساحات واسعة عند تلك النهايات. وكانت تلك الساحات عبارة عن مزلقانات ومصاطب لمدافع القرنين ١٧-١٨م التي لا تستطيع إخماد الارتداد عند الرمي. ودل الخط المنكسر لجدران القلعة على معرفة البنائين بتحصينات المهندس الفرنسي فوبان وكان هذا أيضاً حصناً للحراسة ولكنه روسي، وكان باستطاعته أن يستوعب من القوى سرية جنود ولكن على ما يبدو كان ذلك كافياً لإقامة النظام في أسافل التيريك. وبعد ذلك لما أخضع بطرس الكبير في عام ١٧٢٤م الشاطئين الغربي والجنوبي لبحر قزوين تحول شمال القفقاس إلى أحد الأقاليم الداخلية في الإمبراطورية الروسية.

---

١- الاولوس: هو اتحاد القبائل في منطقة محددة تحت سلطة خان أو زعيم - قائد - عند شعوب آسيا الوسطى - أو سيبريا - المترجم.

ورجعنا من الطريق فقط لأننا قررنا أنه لا توجد أطلال لمدينة خزرية قديمة في أسافل التيريك.

وكانت الأطلال عند كوردونوفا القديمة التي يسميها السكان المحليون «قلعة شامل» من نوع آخر تماماً وبطبيعة الحال شامل بريء من بناء أو استخدام هذه القلعة، فهي نسبت إليه كالعادة الشعبية التي تؤقت جميع الآثار القديمة إلى آخر الأحداث التاريخية الضخمة التي تحجب جميع التواريخ السابقة وهكذا تقع في آخرها جميع الآثار السكيثية والروسية القديمة التي يعتبرها السكان المحليون تركية تذكاراً لعدوان الأتراك في عام ١٦٧٢م على كامينيتس. ونسب ستيبان رازين جميع الجروف عند الفولغا وكل الخرائب في منغوليا إلى - جنكيز خان.

ومتاريس «قلعة شامل» الواقعة على ضفة التيريك الهرم مصنوعة من الغضار وتكرر (المقصود تساير - المترجم) منعطفات النهر الهرم وهي في حالة سيئة جداً لأن المعالف ومقابر القوزاق مبنية فيها والفخار الملقى بكثرة داخل القلعة هو فخار سرماتي وبالتالي نحن وقعنا على واحدة من القلاع الآلانية التي نجا بواسطتها السكان المحليون من الهونّو وفي تلك الأوقات ساد الجفاف في السهوب وفياضانات التيريك لم تهدد الآلانيين الذين بنوا القلعة عند الماء بالذات لكي لا يعانوا من العطش أثناء الحصار ولم يخافوا أيضاً من الهجوم لأن الهونّو مخيفون في السهوب المفتوحة واحتلال القلاع لم يتعلموه.

واللقية بذاتها مهمة ولكنها لا تلزمنا وللبحث عن أطلال المدن الخزرية القديمة انطلقنا ثانية إلى الغرب.

# الغابة

على امتداد الضفة اليسرى للتيريك يمتد شريط من الغابة الكثيفة بعرض نحو ٥كم وهذه الغابة لا تشبه ولا واحدة من التي توصلت في وقت ما إلى مشاهدتها. أشجار عملاقة تغطي السماء بأوراقها ومن الصعب أن تصدق أن هذا حور فجذوعها ملفوفة مراراً حتى أصلها بالنباتات المتسلقة، وينمو القصب في الأماكن المنخفضة بمكانسه الرمادية المتمايلة. وتشكل الشجيرات الشائكة أجمات صعبة المرور وهناك في الأماكن التي لا توجد فيها تتناثر على الأرض الأوراق المتعفنة وتسود البرودة الخانقة لأن الأغصان المتشابكة لا تسمح بالمرور لأشعة الشمس.

ولكن الأهم وربما المخيف في هذه الغابة هو - البعوض. ونفكر كالعادة أن البعوض يطير في الهواء أما هنا فالهواء يعمل طبقة فاصلة بين البعوضات وهناك تعلق سحابة رمادية طنانة تسبب لعابر الطريق آلاماً مستمرة تصبح تدريجياً بشكل لا يطاق فأشبعنا قمصاننا بالسائل المضاد للبعوض بحيث تكون في اليوم التالي عاجزة عن اللسع، ودهنا الوجه واليدين والرجلين أما الجلد فالتهب وكأنه احترق بالنار وأسدلنا على الوجه شبكة حابسة لأن البعوض يدخل في الفم والأنف، وعلى كل حال بفضل الطريق المعبد الممتد عبر الغابة فقط وأشعة الشمس المتوهجة استطعنا القيام باستقصاءاتنا. فهذه الوحوش الصغيرة تخاف الشمس والحرارة ولكن هناك حيث يكون الظل تكون مملكتها.

واستولت فيضانات التيريك على قسم من الشريط الغابي وبفضل هذا تمكنا من رؤية ما لا يقارن بغيره ومناظر لا مثيل لها.

وفي مركز أرض الغابة التي تغمرها ذاته شق الطريق المعبد المتراس القديم، وتدبر سائقنا أمره ليقرأ كتاباً بصورة مريحة أما نحن فتقدمنا سيراً على الأقدام إلى المتراس المحاط من جانبيه بالماء. وأبرزت الأشعة المتلألئة المنعكسة على سطح مياه الفيضان شكل المتراس وانعطافاته المبتكرة. وكنا أحياناً مضطرين للانتقال عبر المخاضات - التي كانت البوابات وأحياناً كان المتراس يرتفع - وكانت تلك الجدران القلعة، وكان لا يمكن إجراء أيّ تنقيبات لأن عمق المياه بالقرب من المتراس وصل إلى ١.٥م وحيث كانت الخنادق كان من دون شك أعمق من ذلك. ونجحنا فقط بنقل مخطط وجمع كسرات من الفخار من جوانب الطريق المعبد. وماذا بعد؟ لقد ظهر أن الفخار من النوع المتأخر والمخطط كرر كل ميزات الحصن الروسي الموجود في أسافل التيريك ومرة أخرى هذه الآثار ليست خزرية!!!

وعلى ما يبدو أننا وقعنا على قلعة التيريك التي تبدل موقعها مراراً ما دامت قيزيليار لم تبن في عام ١٧٣٤م والتي أصبحت فيما بعد عاصمة إقليم تركستان وظللنا

هذا - هو الأثر البديع لذلك الزمن لما كان نهر التيريك هو الحد بين روسيا وفارس واستمر ذلك حتى عام ١٧٢٢م عندما استخدم المهندسون الروس جميع منجزات التحصين الأوروبي وأقاموا على الحدود الحصن الذي لا يقهر ولكن هذا ليس هو ما نبحث عنه وكان علينا المضي والمضي لأن القلعة الخزرية يجب اكتشافها في مكان ما ليس بعيداً.

## اللقية الأخيرة

اقتربت إمكانية نقلياتنا من النهاية. وخلال السفر على الطريق المعبد ما قبل الأخير لاحظنا شبح متراس كبير وهذا المكان من الشريط السهبي الواقع بين الرمال والغابة هو الأكثر ضيقاً والأكثر ارتفاعاً وعلى بعد ١كم إلى الأسفل تقع الأرض التي تغمرها مياه فيضان التيريك.

واقتربنا من المتاريس ووقفنا مذهولين. لم أرَ مثيلاً لها من قبل بالرغم من أنه اتفق لي أن صورت أطلالاً من بايكال إلى الكاربات. متاريس عالية شكلت مربعاً منتظماً ببوابات في كل من الجدران الأربعة، وعلى جانبي البوابات وبفواصل متساوية من الجدران بقيت مرتفعات - هي الأبراج المخربة بمعدل ثمانية أبراج في كل جدار. وكانت القلعة محاطة بخندق بعرض ٥٠م امتلأ منذ زمن بعيد، ولكنه ما زال بارزاً بوضوح، وتصل المياه إلى الخندق من السرير غير العريض للتيريك الذي هو جاف الآن ويدور حول القلعة من الشمال.

وكان داخل القلعة مستوياً تماماً (ومن الواضح أنه تشوه بالحراثة) ولكننا وجدنا هناك فخاراً من القرن ٨م - على شكل كسرات من أوعية كبيرة لتخزين الطعام والماء، وكانت البوابة الغربية موسعة بالبلدوزر (آلة الجرف) وبفضلها انكشف مقطع الجدار وهو مكون من الآجر الساماني المربع الشبيه جداً من حيث الأبعاد بآجر قلعة ساركيل الذي توصلنا إلى مشاهدته أثناء تنقيبات م. إ. ارتامونوف في عام ١٩٣٥م وتبين من حول التحصينات الكثير من التربة غير المستوية التي يحتمل أنها من بقايا الأبنية القديمة السابقة للقلعة من دون شك ولكنها جميعاً مغطاة بطبقة قاسية من الأرض المكسوة بالعشب ويتطلب التنقيب فيها أعمالاً خاصة لا يمكن القيام بها أثناء استطلاع الطريق، وكنا مضطرين إلى الاقتصار على نسخ المخطط المرفوع عن المكان والفخار الذي تم جمعه.

وماذا عن هذه القلعة؟ لم أستطع أن أقرر وتركت هذه المسألة تحت البحث لحين العودة إلى لينينغراد.

وبقي أمامنا تفتيش السهوب إلى الشمال من قيزيليار من حيث أنهينا الأعمال في عام ١٩٦٣م وكما ينبغي أن نتوقع. في السهوب لم نَجِد شيئاً. والخزر لم يعيشوا خارج حدود الوديان النهرية لأنهم لم يكونوا رحلاً. ومع أننا افترضنا هذا سابقاً أما الآن فقد حصلنا على الإثبات وانتفت كل الشكوك.

## الخريف:

تخلصاً من أمطار الشاطئ حملت مخطط القلعة إلى معهد الآثار لكي أتشاور مع ب. أ. رابوبورت أفضل اختصاصي بعمارة قلاع القرون الوسطى. الذي وضع الرسوم واحداً فوق الآخر ولم يبدِ أي اهتمام بها، وفي النهاية وضعت على الطاولة مخطط القلعة الأخيرة وبمجرد النظر إليه لم يتمالك نفسه وصرخ «قلعة خزرية! وأي فخار هناك؟»

- «القرن الثامن» أجبت «عندئذ لم يبق أي شك».

ولما عدت راجعاً إلى الأرميتاج شعرت بدوار في رأسي لأني فهمت ببساطة أن تلك لم تكن قلعة خزرية وإنما سيمندير المجيدة نفسها التي من أجل البحث عنها سافرنا نحن إلى التيريك.

والآن بقي أن نكتب التقرير عن التنقيبات التاريخية - الجغرافية وننتقل إلى الحفريات الأثرية المنتظمة والمرحلة الأولى من الأبحاث انتهت - وخازاريا اكتشفتْ.

# أجل إنها سيمندير

بنيت سيمندير المجيدة في الشرق الأدنى من قبل المهندسين الفرس الذين أرسلهم كسرى آنو شروان إلى حليفه الخان التيوركي في الستينيات من القرن ٦م ففي ذلك العهد تعلم الفرس من الاختصاصين اليونانيين الذين كان القسم الأكبر منهم من النساطرة الهاربين من الاضطهادات الدينية من بيزنطة وميزوبوتاميا (ما بين النهرين) ووجدوا الطمأنينة تحت حكم الشاه الذي ضمن لهم التسامح الديني من أعدائهم أصحاب المعتقد الخلقيدوني (نسبة إلى مدينة خلقدونية التي انعقد فيها المجمع المسكوني الرابع من ٨ تشرين أول عام ٤٥١م بحضور ٦٣٠ أباً وأقر فيه دستور الإيمان - وحكم على نسطوريوس وبدعته بالحِرْم واستفاد الشاه الفارسي لأسباب سياسة ضد بيزنطة وحمى النساطرة - المترجم) المتخذ في بيزنطة وهذا يوضح لماذا تشبه القلعة الخزرية المعسكر الحربي الروماني (Castra) والبيزنطيون عَلّموا الفرس ما قد تعلموه من الرومان.

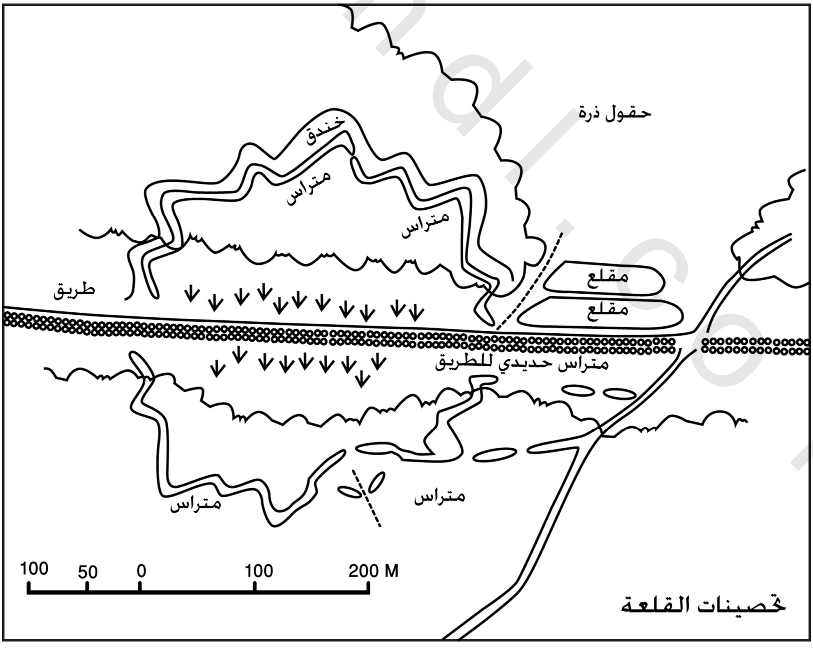

تحصينات القلعة

وبشهادة الجغرافيين العرب (المقدسي والمسعودي) كانت سيمندير أكبر مدن خازاريا، وكانت أوسع من إيتيل، الأمر الذي يصدق بسهولة لأن إيتيل كان مُطبقاً عليها بالنهر ورمال صحارى ما وراء الفولغا، وسيمندير واقعة في واد سعيد ذي طقس جميل وثمار أرضية وفيرة. وبساتين وكروم سيمندير كانت معروفة في كل الشرق الأدنى كما هو الحال في العهد الأكثر تأخراً عندما شرب نبيذ قيزيليار كل ضباط الإمبراطورية الروسية الفقراء ولكن مع كل تلك الضخامة في ذلك الوقت لم تكن مدنية مبانٍ آجرية وإنما عملت الخيام والبيوت الخشبية ذات السقوف المحدبة مساكن للناس. والأخيرة أدهشت جداً العرب والفرس المعتادين على السقوف المسطحة. ولكن لأن ذلك كان عصر ترطب السهوب والأمطار تسقط مراراً كان من الضروري تأمين داخل البيت ولو بشيء من الجفاف.

والعلماء الذين حاولوا استناداً إلى المصادر الكتابية أن يحددوا مكان سيمندير أضلتهم على الأغلب تلك الإشارات التي تدل على أنها واقعة على شاطئ بحيرة أو بحر ولذلك ما من أحد حاول البحث عنها داخل البلاد، إلا أننا نتذكر أنه لا توجد بحيرة في هذه المنطقة وكان مستوى بحر قزوين أدنى بخمسة أمتار عما هو عليه الآن وبالتالي كان شاطئه بعيد جداً عن بلاد سيرير (في داغستان الجبلية) وكان بين سيرير وسيمندير فرسخان وكائناً ما كان الفرسخ طويلاً في هذه المناطق فإنهما لا يصلان إلى قزوين، وكما يبدو حدث هنا شيء آخر مختلف كلياً: فالقوات العربية التي هاجمت خازاريا في القرن الثامن اصطدمت مثلنا تماماً بفيضان التيريك وبقيت في المكان زمناً طويلاً ولم تستطع تحليل الظواهر الطبيعية، فكانت لهم ببساطة مستحيلة ولذلك دونوا ما قد شاهدوا، والجغرافيون أعادوا كتابة أخبار شاهدي العيان دون انتقاد. ولا تجوز ملامتهم في ذلك لأن الموقف التقوي من مصادر المسعودي والمقدسي بقي حياً والناس أكثر ميلاً للثقة بما قرؤوه أكثر مما يراقبونه بذات أعينهم ويقارنون ما رؤوه بما قرؤوه.

وبنيت القلعة في المدينة كحصن ضد الاعتداء من القفقاس وعن هذا يحدثنا موقعها واسمها - سامان - دير - أي البوابة السامانية وأسوار القلعة مبنية بالآجر الساماني.

وأخيراً من ضفة التيريك إلى التلال الرملية على مدى ٤كم امتد خندق عميق مطوق بمتاريس عالية وهو يقع بين قلعة سيمندير وستانيتسا (قرية) شيلكوفسكي الواقعة

على بعد ٤كم شرقي سيمندير، فلمن ولأي شيء تلزم هذه المنشأة؟ لا للقوزاق الذين لم يحصنوا ستانيتساتهم معتمدين على جرأة وشجاعة مقداميهم ولا للجنود الروس الذين ظلوا في هذه المناطق لفترة قليلة ولم يكن في مقدورهم الدفاع عن خط طويل كهذا.

وليس للتتار أو النوغاي الذين كان وادي التيريك لهم حداً فاصلاً أما السهوب والرمال فلا تحجب بالمتراس وبقي الخزر فإن كان هنا مدينة كبيرة لكان يلزمها أسوار للحماية وأما الناس فكانوا كافين ليحتلوا الدفاع على طول المتراس. وأقيمت القلعة ضد العدو الذي توقعوه من الغرب.

obeikandl.com

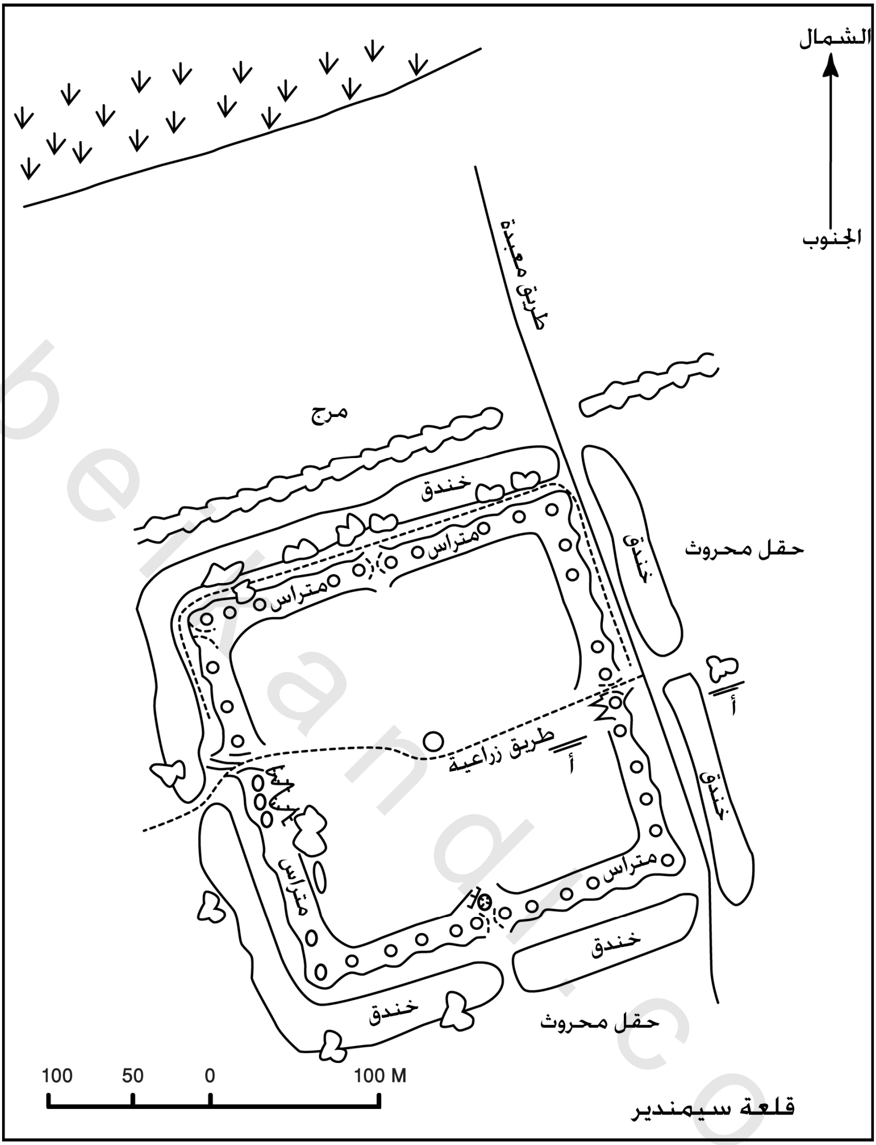

قلعة سيمندير

ولئن كان من السهل الالتفاف من حولها فالمتراس سيوقف المهاجمين وتستطيع حامية القلعة القيام بانطلاقات على مؤخرتهم، وبناء عليه صار كل شيء مفهوماً، وإن كان هناك من تشكيك بذلك - فالبحث عن إيضاحات أخرى غير ممكن. وهكذا اكتشفنا مدينة سيمندير التي تنتظر تنقيبات أثرية منتظمة وأتمنى لعالم الآثار القادم النجاح.

obeikandi.com